ما يقاربها والأخرى يقال لها الكمالية... وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته... وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها، والخزائن الخاتونية في مدرستها، والضميرية في خانكاه هناك، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثره بغير رهن...[٧]

ويبدو أن كثيراً من الأعمال المشهورة التي كانت في حوزة علماء كبار كانت تستقر بشكل أو بآخر في مكتبات الوقف، فقد كان الخطيب التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢ هـ يملك نسخة من التهذيب في اللغة لأبي منصور الأزهري حملها معه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن لديه مالٌ كافٍ يستأجر به مركوباً فكان يسير على قدميه حاملاً نسخة التهذيب في مخلاة مما تسبب في نفاد العرق إليها وأثر فيها البلل، ثم إن هذه النسخة استقرت أخيراً في إحدى المكتبات الوقفية في بغداد في القرن السابع الهجري[٨].

وكانت هذه المكتبات بكتبها الوقفية ، إضافة إلى المكتبات الخاصة مثل مكتبات الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وراء حركة الازدهار الفكري والثقافي التي شهدها العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة، فقد اعتمد عليها علماء مشاهير في وضع مصنفاتهم، من مثل ياقوت الحموي الذي يشير إلى استفادته من خزائن كتب مرو الشاهجان حيث يقول: «وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن»[٩].

دور الكتب المستقلة:

واعتماداً على المصادر التي اطلعنا عليها، نجد أن وقف دور الكتب أو خزائن الكتب المستقلة هو أقدم أنواع وقف الكتب والمكتبات عند المسلمين، ومن الطبيعي أن يكون أوائل المسهمين في هذا النوع من الوقف هم الخلفاء والحكام والوزراء والأثرياء نظراً لتوفر المال لديهم، ووجود الحافز نحو المشاركة في عمل خيري عن طريق استغلال جزء من ثرواتهم للصالح العام رغبة في الثواب وأملاً في ترك انطباع حسن لدى مستخدمي هذه المكتبات أثناء حياتهم، وبعد وفاتهم، وقد ظهرت أوائل دور الكتب الوقفية في القرن الرابع الهجري، ومن هذه الدور :

دار العلم في الموصل:

وتعتبر هذه الدار، أو حسب مفهومنا المعاصر هذه المكتبة أول مكتبة وقفية في الإسلام إعتماداً على ما ورد في النصوص التراثية المتوفرة بين أيدينا، وقد اعتبرها أحد الباحثين أول دار علم في الإسلام[١٠].

وصاحب الفضل في إنشاء هذه المكتبة هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي الذي يقول عنه ياقوت نقلاً عن محمد بن إسحاق النديم :

> هو حسن التأليف، عجيب التصنيف، شاعر أديب فاضل، ناقد للشعر كثير الرواية مات سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ومولده سنة أربعين ومائتين، له عدة كتب في الفقه على المذهب الشافعي، فأما كتبه في الأدب فهي كتاب الباهر في أشعار المحدثين عارض به الروضة للمبرد، كتاب الشعر والشعراء لم يتم، ولو تم لكان غاية في معناه، كتاب السرقات لم يتم أيضاً وهو كتاب جيد في معناه، كتاب محاسن أشعار المحدثين لطيف[١١].

وقد كان ابن حمدان صاحب رئاسة وجاه في الموصل متقدماً في أصناف من المعارف مثل الفقه والنحو الكلام والجدل، وكانت له علاقات جيدة بكبار رجالات عصره من الوزراء والأدباء والشعراء مثل البحتري والمبرد وثعلب[١٢].

ويبدو أن تنوع اهتماماته العلمية وحبه للعلم وصدقه وإخلاصه قد دفع به إلى التفكير في إنشاء مكتبة يوفر فيها ما يساعد طلبة العلم والباحثين في مدينته الموصل على الدراسة والبحث والاطلاع، ولعله كان على درجة من الثراء تساعده على تحقيق مثل هذا المشروع ويلمح إلى ذلك ياقوت نقلاً عن أبي علي بن أبي الزمزام حيث يقول :

> كان ابن حمدان كبير المحل في أهل الرياسات بالموصل... وكان صديقاً لكل وزراء عصره مداحاً لهم... مفضلاً عندهم، وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل

طالب للعلم لا يمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسراً أعطاه ورقا وورقا تفتح في كل يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته...[١٣].

ولم تحدد المصادر تاريخ إنشاء المكتبة، ولكن من المحتمل أن ذلك كان في فترة تمتد ما بين أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري اعتماداً على الفترة التي عاش فيها من ٢٤٠ إلى ٣٢٣ هجرية، أما محتوياتها من الكتب فهي دون شك كانت تضم معارف شتى نظراً لتنوع اهتمامات ابن حمدان نفسه والذي كان كما تشير المصادر مهتما بالفقه والشعر والأدب والتاريخ والنجوم[١٤].

ولايعرف مصير هذه المكتبة التي نكب صاحبها بوشاية جماعة من أهل الموصل إذ حسدوه على علمه وجاهه عند الخلفاء والوزراء والعلماء وكتبوا فيه محضراً وشهدوا عليه بكل قبيح عظيم ونفوه عن الموصل فانحدر هارباً إلى بغداد، وبعد هذا الحدث تنقطع عنا أخبار الدار التي خدمت الموصل ويسرت لأهلها سبل العلم والأدب[١٥].

دار العلم في البصرة :

ورغم أننا لا نملك إشارة صريحة تنص على وقف داري العلم اللتين أنشأهما أبو علي ابن سوار الكاتب في أواخر القرن الرابع في رام هرمز والبصرة[١٦]. إلا أن هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأنهما كانتا كذلك، اعتماداً على نص لابن كثير يذكر فيه أن في سنة ٤٨٣ هجرية «دهم أهل البصرة رجل يقال له بليا، كان ينظر في النجوم فاستغوى خلقاً من أهلها وزعم أنه المهدي وأحرق من البصرة شيئاً كثيراً، من ذلك دار كتب وقفت على المسلمين ولم ير في الإسلام مثلها»[١٧]. كما يشير القاسم بن على الحريري في مقاماته إلى دار كتب في البصرة. فيقول على لسان الحارث بن همام.

حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين والمتغربين، فدخل ذو لحية كثة وهيئة رثة، فسلم على الجلاس، وجلس في أخريات الناس ثم أخذ يبدي ما في وطابه، ويعجب الحاضرين

بفصل خطابه فقال لمن يليه، ما الكتاب الذي تنظر فيه فقال ديوان أبي عبادة المشهود له بالإجادة...»[١٨].

وقد صور جانباً من هذه المكتبة وما كان يجري فيها من نقاش، الفنان يحيي ابن محمود الواسطي في نسخة مصورة من مقامات الحريري محفوظة حالياً في المكتبة الأهلية بباريس برقم ٥٨٤٧[١٩].

فبين تاريخ تأسيس دار العلم التي أنشأها ابن سوار وإحراق المكتبة الوقفية في البصرة التي يشير إليها ابن كثير، ويرجح أن تكون إشارة الحريري متعلقة بها قرابة مائة عام، وهو ما يدفع بنا إلى الاعتقاد بأن المكتبة الوقفية التي أحرقت كانت هي نفسها التي أسسها ابن سوار وإن لم ينص على وقفها، ولعل شيئاً منها بقي بعد ذلك فأعيد تشييدها واستمرت حتى عصر الحريري (٤٤٦ ــ ٥١٦هـ).

كما أن من المحتمل أن تكون هذه المكتبة واتباع صاحبها لنظام الوقف عند تأسيسها قد اتخذت أنموذجاً من قبل سابور بن أردشير عندما أوجد دار العلم في بغداد، خاصة وأن كلا الشخصيين كانا صاحب مكانة في دولة البويهيين، فالأول وهو ابن سوار كان من حاشية عضد الدولة، أما الثاني ابن أردشير فكان وزيراً لبهاء الدولة البويهي.

دار العلم في بغداد :

وبالنسبة لهذه المكتبة نجد نصاً صريحاً يشير إلى أنها كانت وقفاً يذكره بعض المؤرخين مثل ابن كثير الذي يشير في حوادث سنة ٤١٦ إلى وفاة سابور ابن أردشير فيقول :

> وزر لبهاء الدولة ثلاث مرات، ووزر لشرف الدولة وكان كاتباً سديداً عفيفاً عن الأموال، وكثير الخير، وسليم الخاطر، وكان إذا سمع المؤذن لا يشغله شيء عن الصلاة. وقد وقف داراً للعلم في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، وجعل فيها كتباً كثيرة جداً، ووقف عليها غلة كبيرة... وكانت محلتها بين السورين.[٢٠].

كما ينص على وقفها مصدر آخر مع اختلاف في تاريخ تأسيسها، فيرد على

النحو التالي ضمن حوادث عام ٣٨٣هـ «وفيها ابتنى الوزير أبو نصر سابور بن أردشير داراً بالكرخ سماها دار العلم، ووقفها على العلماء ونقل إليها كتباً كثيرة»[٢١].

ويؤكد على ذلك مصدر ثالث إذ يشير في معرض التعريف بسابور قائلاً «وابتاع داراً بين السورين في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وحمل إليها كتب العلم من كل فن وسماها دار العلم، وكان فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد، ووقف عليها الوقوف، وبقيت سبعين سنة»[٢٢].

ورغم وضوح الإشارة إلى وقفها في النصوص السابقة فقد أشير إليها في مصادر أخرى دون ذلك في معرض ترجمة سابور «... وله ببغداد دار علم وإليها أشار أبو العلاء المعري بقوله في القصيدة المشهورة :

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل ميهال»[٢٣]

كما يذكرها عز الدين علي بن الأثير دون الإشارة إلى وقفها حيث يقول في حوادث سنة ٤١٦ «وفيها توفى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة، وكان كاتباً سديداً وعمل دار الكتب ببغداد سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد»[٢٤].

وأشير إليها بشكل مقتضب دون ذكر أي شيء يتعلق بوقفها في مصدر من المصادر عند ترجمة سابور بن أردشير فقيل: «.. له ببغداد دار علم»[٢٥].

ومثل هذا التباين في النص على أنها كانت وقفاً في بعض المصادر، وإهمال ذلك في مصادر أخرى يعني أن بعض المكتبات السابقة لدار العلم قد تكون وقفاً أيضاً لكن المؤرخين لم يلتفتوا إلى النص على ذلك بشكل محدد ودقيق.

ويتحدث محمد ماهر حمادة عن هذه المكتبة بشكل مستفيض معتمداً على مصادر ومراجع متنوعة مثل الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز وتعريف القدماء بأبي العلاء وشرح سقط الزند وغيرها فيقول :

وهي ترد في رسائل أبي العلاء المعري باسم دار العلم وقد وقف

الوزير أوقافاً كثيرة غنية مجزية على الدار كفت للإنفاق على المكتبة طوال مدة حياتها ولم تحتج لأحد طوال هذه الفترة، وقد بلغت عدة كتبها ١٠٤٠٠ مجلداً من أصناف العلوم، منها مائة مصحف بخطوط بنى مقلة، وفيها عدد كبير من الكتب التي امتلكها رجال مشهورون وأغلب الكتب بخطوط أصحابها .. وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً رائعاً وارتفع صيتها وطارت سمعتها في الآفاق وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء من الآفاق... هذا ويعتبر أبو العلاء المعري الشاعر المشهور، أشهر من قصد بغداد لزيارة دار العلم هذه والتعرف إلى محتوياتها، وعلى الأدباء والعلماء الذين كانوا يرتادونها... وقد أقام أبو العلاء في بغداد يتردد على دار العلم عاماً وبعض العام، وعقدت بينه وبين أبي منصور الخازن وعبد السلام البصري الخازن الآخر في دار العلم صداقة ومحبة، وقد وجه أبو العلاء الرسالة التاسعة عشرة من رسائله إلى أبى منصور هذا...»[٢٦].

ونستخلص من النصوص التي تحدثت عن هذه المكتبة ومؤسسها الوزير سابور أن روح الخير والصلاح اللتين كان يتمتع بهما، كانتا سبباً رئيساً في توجهه هذا والذي أثمر عن قيام مكتبة عامرة استقطبت مشاهير العالم الإسلامي في تلك الفترة، واستفاد منها علماء وطلاب عشرات السنين.

ولم تكن كتب سابور التي نقلها إليها هي الوحيدة التي تكونت منها مجموعاتها على مدى السنين، إذ أن هناك جملة من علماء ومشاهير العصر وقفوا عليها كتباً مثل الطبيب جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع (ت ٣٩٦هـ) الذي صنف بعد عودته إلى بغداد من الري كتاباً سماه الكافي، بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له، ووقف منه نسخة على دار العلم ببغداد[٢٧].

ويذكرنا ابن بختيشوع بنظام الايداع المعاصر، وهو ما يعطى هذه المكتبة قيمة معنوية عالية، وقد يكون هناك من اقتدى به أو سبقه إلى مثل هذا العمل.

ويبدو أن دار العلم هذه هي التي يشير إليها السلفي فيما نقله عن الرئيس أبي المظفر في معرض الحديث عن علي بن فضال المجاشعي المتوفى سنة ٤٧٩هـ حيث يقول: «أنشدني أبو القاسم بن ناقيافي ابن فضال المجاشعي المقرىء، قال دخلت دار العلم ببغداد وهو يدرس شيئاً من النحو في يوم بارد فقلت :

اليـوم قـــارس بـــارد كأنه نحـو ابن فضـال
لا تقرءواو النـحو ولا شعـره فعيترى الفالـج في الحـال[٢٨]

وقد عرفت في فترة تالية بدار الكتب القديمة، ولعل ذلك تميزاً لها عن دور الكتب الأخرى التي أنشئت بعدها، ونجد النص على هذا المسمى في ترجمة محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد أبي منصور المتوفى سنة ٥١٠هـ الذي يعرفه ياقوت قائلاً: «الخازن لدار الكتب القديمة...» ثم يورد نصاً توضيحياً ينقله من كتاب الهفوات النادرة لغرس النعمة أبي الحسن محمد الصابىء يقول فيه: «كان بدار العلم التي وقفها سابور بن أردشير الوزير خازن يعرف بأبي منصور...»[٢٩].

وانتقل أمر الإشراف على هذه المكتبة بعد وفاة مؤسسها سابور إلى الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسن الموسوى نقيب الطالبين الذي عَين أبا عبد الله بن محمد خازناً لها إضافة إلى الخازن الأصلي أبي منصور[٣٠].

بيت الكتب بالري :

يذكر ياقوت أن صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني أرسل إلى الصاحب ابن عباد في السر يستدعيه ويرغبه في خدمته وبذل البذول السنية، فرد عليه الصاحب معتذراً بجملة أعذار من بينها أن لديه من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر[٣١]، ثم يورد تعليقاً لأبي الحسن البيهقي نصه :

> وأنا أقول: بيت الكتب الذي بالري، دليل على ذلك بعدما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين، فإني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات، فإن السلطان محموداً لما ورد إلى الري قيل له: إن هذه الكتب، كتب الروافض، وأهل البدع، فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه...[٣٢]

والنص على بيت الكتب، يوحي بأنها كانت مكتبة وقفية عامة، كما أن ربط البيهقي بينها وبين كتب ابن عباد يدل على أنه كان الواقف، وقد أشار محمد ماهر حمادة إلى أن الصاحب ابن عباد وقف مكتبته فأصبحت مكتبة عامة[٣٣]، لكنه لم يشر إلى المصدر الذي أخذ عنه هذه المعلومة، ولعله استفاد من نص ياقوت المشار إليه سابقاً، وإذا اعتبرنا بيت الكتب في الري مكتبة وقفية وأن

مؤسسها الصاحب بن عباد، فقد يكون تاريخ وقفها في سنة ٣٨٥ هجرية وهي السنة التي توفي فيها الصاحب.

دار الحكمة في القاهرة :

وقد أعقب إنشاء دار العلم في بغداد بسنوات افتتاح مكتبة وقفية على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ المكتبات في الإسلام، ألا وهي دار الحكمة بالقاهرة التي يبدو أن مؤسسها اتخذ من بيت الحكمة في بغداد نموذجاً ومثالاً يسير عليه، وإن كان النص على وقفها صريحاً وواضحاً.

ففي يوم السبت العاشر من جمادي الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة: فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة في القاهرة، وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها، وممراتها الستور وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله لأحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها[٣٤].

وكما ورد في النص الخاص بافتتاح هذه المكتبة، فقد كان مؤسسها هو الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، الذي أبدى اهتماماً كبيراً بأمرها، وحرصاً على توفير موارد مالية كافية تعين على استمرارها في تقديم خدماتها للمستفيدين منها وذلك بإيقاف دور وحوانيت بنيت ليستغل ريعها في الصرف على هذه المكتبة وبعض الجوامع، كما يتبين من نص الوقفية التالية :

هذا كتاب أشهد قاضي القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقي على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود في مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة

أربعمائة، أشهدهم وهو يومئذ قاضي عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله... على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله وأضاف الشام والرقة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب بمحضر رجل متكلم أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التي يذكر جميع ذلك ويحدد في هذا الكتاب، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة والجامع بالمقس اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما وعلى **دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التي وقفها والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب** منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم، ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجري ذكرها فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة **ودار الحكمة** بالقاهرة المحروسة جميع الدار المعروفة بدار الضرب، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذي كله بفسطاط مصر،... وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة مجسة بتة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين، ولا تغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها، ولا يتأول، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهى إليه ولايتها، ويرجع إليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوي الرغبة في إجارة أمثالها، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين، ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً[٣٥].

وبعد أن تحدد ما يخص الجامع الأزهر من أموال وطرق انفاقها تحدد الوقفية ما يخص دار الحكمة من أموال، وطرق إنفاقها على النحو التالي :

ويكون العشر، وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كل سنة من العين المغربي مائتان وسبعة وخمسون ديناراً من ذلك لثمن الحصر العبداني وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير، ومن ذلك لورق الكاتب (يعني الناسخ) تسعون ديناراً، ومن ذلك للخازن ثمانية وأربعون ديناراً، من ذلك لثمن الماء اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك للفراش خمسة عشر ديناراً، ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك لمرمة الستارة دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك لثمن لبود للفراش في الشتاء خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن طنافس في الشتاء أربعة دنانير[٣٦].

وتظهر الوقفية بعد نظر الواقف ورغبته الأكيدة في أن تظل المكتبة في أحسن حالاتها، ويتضح ذلك من إشارته إلى كيفية توزيع المصروفات المأخوذة من الوقف والتي شملت الانفاق على العاملين فيها، والاهتمام بأثاثها، وتوفير الورق والحبر والأقلام لروادها، إضافة إلى العناية بالكتب والحرص على سلامتها عن طريق ترميم ما يحتاج منها إلى ذلك.

ونلاحظ في نص الوقفية هذه إشارة واضحة إلى أن الحاكم كان قد وقف دار الحكمة وكُتبها في فترة سابقة على كتابة هذا الصك، أما المصدر الأساسي لهذه الكتب الوقفية فكانت خزائن القصور الفاطمية والتي كانت تمتليء بالكتب حتى قيل أن خزائن العزيز بالله والد الحاكم كان فيها أكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين وعشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد، أما عدد الخزائن «التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة..»[٣٧]، ويؤكد أن المصدر هي خزائن القصور ما نجده فيما نقله المقريزي عن عز الملك محمد بن عبد الله المسبحي عندما وصف افتتاح هذه المكتبة فقال: «وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة»[٣٨]، ولكنها لم تكن المصدر الوحيد بل يبدو أنه قد زودت بكتب من مصادر أخرى عن طريق الشراء، كما أضيف إليها في فترات تالية مجموعة كبيرة حتى قال عنها المقريزي :

وكانت من عجائب الدنيا، ويقال أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك، ويقال أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة...»[٣٩].

وقد توحي الإشارة إلى أنها كانت بالقصر وكذلك ذكرها باسم خزانة الكتب إلى أن المقصود مكتبة أخرى غيرها، ولكن ينفى هذه الشبهة أن موقع بيت الحكمة كان بجوار القصر الغربي «من بحريه»[٤٠]، كما أن دار الحكمة لم يكن الاسم الوحيد الذي تعرف به فقد ذكرت مراراً باسم «دار العلم» و «دار الكتب» كما في النص السابق، ومما يؤكد أنها هي التي أشير إلى أن بها «ألف وستمائة ألف» ما ذكر من أنها كانت تضم ألف ومائتي نسخة من تاريخ الطبري في حين أن مكتبة القصر التي كانت في عهد العزيز بالله تحتوي على عشرين نسخة فقط من تاريخ الطبري.

ودار الحكمة دون شك تعتبر أبرز نموذج للمكتبات الوقفية التي شيدت منذ البدء على هذا النظام، وأعطت ثماراً جناها أهل العلم من مختلف الطبقات، ولم يستغن عن استخدامها العلماء والطلاب، وكافة أفراد المجتمع لغناها ووفرة ما كانت تضمه من كتب.

خزانة المغربي في ميافارقين :

ووقف الوزير أبو القاسم الحسن بن علي المغربي المتوفى سنة ٤٢٨هـ الذي قيل أنه «لم يزر لملك ولا لخليفة أكفأ منه» خزانة كتب في ميافارقين[٤١]، وقد ظلت باقية إلى عهد المؤرخ ابن شداد المتوفى في عام ٦٨٤هـ، الذي يقول عنها «خزانة الكتب المعروفة إلى الآن بخزانة المغربي» وقد نسبها محقق الأعلاق الخطيرة إلى نصر الدولة أحمد بن مروان حيث أشار وهو يعرف بها إلى أن خزانة المغربي مكتبة ذات شهرة عالية وقفها نصر الدولة أحمد بن مروان،[٤٢] وقد يكون المغربي مؤسسها ثم أضاف عليها نصر الدولة الذي كان حاكماً لمنطقة ميافارقين مجموعة أخرى فنسبها بعض المؤرخين له.

دار الكتب في فيروز أباد :

وأنشأ هذه الدار الوزير قوام الدولة عماد الدين أبو منصور العادل ابن مافنه المتوفى في عام ٤٣٣هـ، وكان من وزراء الملك البويهي أبي كاليجار، وكان حسن السيرة فاضلاً نزيهاً صيتاً[٤٣]، وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن من آثاره «دار كتب وقفها على طلاب العلم فيها تسعة عشر ألف مجلد، ما فيها إلا أصل منسوب وفيها أربعة آلاف ورقة بخط بني مقلة»[٤٤]، وفي مصدر آخر أنه «بنى دار الكتب بفيروز أباد وجعل فيها سبعة آلاف مجلد»[٤٥]، وورد خبر عنها في مصدر ثالث على النحو التالي :

«وقد وقف خزانة كتب في مدينة فيروز أباد تشتمل على سبعة آلاف مجلد من ذلك أربعة آلاف ورقة بخط أبي علي وأبي عبد الله بن مقلة»[٤٦]، ويلاحظ هنا اختلاف بين المصدر الأول والمصدرين الآخرين في تحديد عدد محتويات هذه المكتبة والترجيح هنا فيه شيء من الصعوبة، فالمصدر الأول وهو المنتظم لابن الجوزي أقرب إلى عصر ابن مافنه، بينما الآخرين نجد فيهما اتفاقاً على أن عددها كان سبعة آلاف، مع إغفال ابن الأثير الإشارة إلى أوراق بنى مقلة، وذكرها عند ابن كثر متفقاً في ذلك مع ما ذكره ابن الجوزي، ولعل ما رود عند ابن الأثير وابن كثير أقرب إلى الصحة لأنهما أشارا إلى موقعها وهي مدينة فيروز أباد، فلعل مصدرهما كان غير ابن الجوزي.

ولم تكن مدينة فيروز أباد التي وقف عليها ابن مافنه هذه المكتبة، إلا مدينة صغيرة من مدن فارس تقع قريباً من شيراز، وهو الأمر الذي يعطي صورة عن انتشار دور الكتب في مدن العالم الإسلامي كبيرها وصغيرها في ذلك الحين، ولا شك أن هذه المكتبة لما كانت تحتوي عليه من النفائس استقطبت أنظار العلماء من أماكن كثيرة.

دار كتب الصابيء في بغداد :

وأسسها غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن الصابيء المولود في سنة ٤١٦ أو ٤١٧[٤٧] وهو من أسرة علم، وكان أجداده من الصابئة الحرانية، وكان هو أول مولود على الإسلام من أسرته، ويشير إلى تاريخ إنشائها ابن كثير في حوادث سنة ٤٥٢ عندما يقول: «وفي رجب وقف أبو الحسن محمد بن

هلال الصابيء دار كتب، وهي دار بشارع ابن أبي عوف من غربي بغداد، ونقل إليها ألف كتاب عوضاً عن دار أردشير التي أحرقت بالكرخ»[٤٨]، ثم يذكرها مرة أخرى في حوادث سنة ٤٨٠ عندما يشير إلى وفاة أبي الحسن الصابيء فيقول: «وقد أنشأ داراً ببغداد ووقف أربعة آلاف مجلد في فنون من العلوم»[٤٩] ويبدو أن النص الأول نقله ابن كثير عن ابن الجوزي الذي يقول: «وفي رجب من سنة ٤٥٢هـ وقف أبو الحسن محمد بن هلال الصابيء دار كتب بشارع ابن أبي عوف من غربي دار السلام، ونقل إليها ألف كتاب، وكان السبب أن الدار التي وقفها سابور الوزير بين السورين احترقت، ونهب أكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم أن وقف هذه الكتب»[٥٠].

ورغم ما يظهر في النصين من تناقص، إلا أنه في الحقيقة لا تناقض بينهما، إذ أن الإشارة الأولى تخص ما كانت تضمه عند تأسيسها في عام ٤٥٢، أما الإشارة الثانية فهي دون شك تعبر عما كانت عليه في عام ٤٨٠هـ عندما توفي الصابيء.

أما ما ذهب إليه ابن الفوطي من أنها كانت تضم نحواً من أربعمائة مجلد في فنون العلم [٥١]، فلعله وهم منه فالعدد هنا قليل، ولا يمكن أن يعبر عن محتويات مكتبة بديلة لمكتبة سابور كما أشار كل من ابن الجوزي وابن كثير من أنها وقفت لتسد الفراغ الذي تركته دار العلم التي أسسها سابور نتيجة احتراقها التي يبدو أن الصابيء كان كثير التردد عليها للبحث والمطالعة، فاختزن إعجاباً بشخصية واقفها مما أثر فيه ودفع به فيما بعد إلى وقف هذه المكتبة عوضاً عنها واقتداء بصنيع ابن أردشير.

ولعل مما يؤكد وثوق صلة الصابيء بدار العلم إيراده خبرين حولها كلاهما يتعلق بخازنها أبي منصور يقول في الأول :

> وحدث أن سابور الوزير استناب في دار العلم بين السورين خازناً يكنى بأبي منصور، فلبس في بعض الأعياد ثياباً جدداً وأخذ في السحر قارورة فيها حبر، فصبها في يده وطرحها على وجهه غلطاً من قارورة ماء الورد إلى قارورة الحبر، وخرج على تلك الصفة يريد الجامع فلقيه الناس وتضاحكوا منه وأروه ما به فقال: غلطنا من ماء الورد إلى الحبر ورجع[٥٢].

وأما في الخبر الثاني فيقول :

وكان في دار العلم بين السورين التي وقفها سابور الوزير خازناً يعرف بأبي منصور واتفق بعد سنين كثيرة من وفاة سابور أن آلت مراعاة الدار إلى المرتضى أبي القاسم الموسوى نقيب الطالبيين فرتب معه آخر يعرف بأبي عبد الله بن حمد مشرفاً عليه وكان داهية جلداً وضد أبي منصور مكراً وكيداً فصار يتلهي به دائماً[٥٣]....

ونالت هذه المكتبة حظاً من الشهرة فكان العلماء والأدباء يجتمعون فيها فيتدارسون ويتناظرون، منهم أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي الذي يشير إلى أنه حضر يوماً إليها فتذاكر وغيره أمر العقل وتحسينه وتقبيحه[٥٤]...

خزانة الكتب في حلب :

ورغم أننا لا نملك أي نص يشير إلى وقفها أو بدء تأسيسها إلا أن المؤكد أنها كانت مكتبة وقفية ، خاصة وأن النصوص التي أشارت إليها تدلل على كبر حجمها وعظم أمرها، وبالتالي فإن مكتبة مثلها لا يمكن أن تقوم بوظائفها دون مساندة مالية جيدة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الوقف.

والتاريخ التقريبي للفترة التي وجدت فيها هذه المكتبة، هو أوائل القرن الخامس الهجري، إذ أن الشاعر محمد بن نصر بن صغير القيسراني المتوفي سنة ٥٤٨ هجرية «سكن حلب وولى خزانة الكتب»[٥٥] فيها، ويذهب بنا الظن إلى أن واقفها هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الذي اشتهر بحب العلم ووقف الكتب، وكان القيسراني على علاقة بهذا الملك .

ويرد ذكر هذه المكتبة في ترجمة أبي الحسين ثابت بن أسلم الحلبي الفقيه الشيعي الذي قتله المستنصر الفاطمي في حدود سنة ٤٦٠ بسبب كتاب ألفه في كشف عوار الاسماعيلية.

«وأحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلد»[٥٦] ولم يوضح النص العلاقة بين ثابت بن أسلم مؤلف الكتاب وإحراق المكتبة، ولكن قد نذهب إلى أنه كان يعمل فيها، أو كانت تضم مؤلفات له موجهة ضد الاسماعيلية.

دار العلم في طرابلس الشام :

تعاني هذه المكتبة من نقص المعلومات التي لا تمكن من إبراز صورتها بشكل واضح وجلي وتظهر دورها الذي قامت به فترة وجودها، وهي تنسب إلى أسرة آل عمار التي حكمت طرابلس في القرن الخامس الهجري، ويبدو أن أول من استقل بأمر هذه المدينة منهم هو أبو طالب الحسن بن عمار الذي توفي سنة ٤٦٤، وهو الذي أسس دار العلم، وقد أشار إلى ذلك أحد المؤرخين عند حديثه عنه فقال: «وكان ابن عمار هذا من أعقل الناس وأشدهم رأياً فقيهاً على مذهب الشيعة وكانت له دار علم بطرابلس فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً»[٥٧] وقد جددها ووسعها من بعده جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد ابن عمار في سنة ٤٧٢هـ، وأضاف إليها كتباً كثيرة[٥٨]، وكان مما وقفه آل عمار في هذه المكتبة «ستة كتب من مؤلفات أبي العلاء المعري وهذه الكتب هي الصاهل والشاحج والسجع السلطاني والفصول والغايات، والسادن، واقليد الغايات ورسالة الاغريض، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس الهجري»[٥٩].

وقد بالغ البعض في تقدير قيمة هذه المكتبة، وما كانت عليه، حتى قيل إن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد... منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم، وثمانون ألف نسخة تفاسير[٦٠].

دار الكتب في ساوة :

من المؤسف أن المعلومات عن هذه المكتبة شحيحة للغاية، وليس هناك غير نص ورد في ترجمة موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم ابن التلميذ الطبيب (ت ٥٦٦) وهذا النص يقول :

وكتب إلى موفق الدين أبي طاهر الحسين بن محمد لما اجتاز بساوة، ودخل إلى دار كتبها التي وقفها المذكور المكتوب إليه :

وفقت للخير إذ عممت به ... طلابه يا موفق الدين
أزلفت للناس جنة جمعت ... عيون فضل أشهى من العين
فيها ثمار العقول دانية ... قطوفها حلوة الأفانين
لازلت تسمو بكل صالحة ... بسعدى قدرة وتمكين
ويرحم الله كل مستمع ... متبع دعوتي بتأمين[٦١].

ولم نقف على ترجمة لموفق الذي أسس هذه المكتبة ووقفها، ويربط محمد ماهر حمادة بين هذه المكتبة التي يشير إليها ابن التلميذ وإشارة لياقوت عند حديثه عن ساوة حيث يقول :

ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط بينها وبين كل واحدة من همذان والري ثلاثون فرسخاً وبقربها مدينة يقال لها آوة... ومازالتا معمورتين إلى سنة ٦١٧ فجاءها التتر الكفار فخربت، فإنهم خربوها وقتلوا كل من فيها، ولم يتركوا أحداً البتة، وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها بلغني أنهم أحرقوها[٦٢].

فبين وفاة ابن التلميذ وتخريب المكتبة خمسون عاماً، وهي فترة قصيرة ترجح ماذهب إليه حمادة من أنها نفسها التي أسسها موفق الدين أبو طاهر، ولعلها شهدت عناية من غيره فوقفوا عليها كتباً جعلت ياقوت يصفها بأنه لم يكن في الدنيا أعظم منها.

خزانة المالكية في مكة المكرمة :

وتأسست في فترة قريبة من فترة دار الكتب في ساوة، مكتبة وقفية في مكة المكرمة، يبدو أنها كانت تهتم بالدرجة الأولى بمصنفات أهل المذهب المالكي، ولا نملك معلومات عن مؤسسها، ولكنها فيما يبدو كانت تزود بين فترة وأخرى بكتب يوقفها علماء وأشخاص من المالكية، ففي عام ٥٨٨ وقف محمد بن عبد الله بن الفتوح بن محمد المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف «نسخة من المقرب لابن زمنين المالكي بست مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكون بمكة وجعل مقره خزانة المالكية بمكة»[٦٣].

ولا نعتقد أن هذه الخزانة كانت داخل الحرم الشريف إذ أنها لو كانت كذلك لنص عليه صراحة، بل كانت مستقلة في مكان خاص بها في مكة المكرمة.

خزانة كتب الهمذاني في همذان :

وكان قطب الدين أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن الهمذاني العطار

المتوفى سنة ٥٦٩هـ الحافظ المحدث، أحد أعيان عصره، علماً وزهداً، قد عمل «لنفسه خزانة كتب، أوقف جميع كتبه فيها...»[٦٤].

ولا نملك أي نص يوضح لنا إن كانت هذه الخزانة في بناية مستقلة، أم أنها ضمن منزل العطار، والمرجح أنها احتلت جزءاً من منزله، ويسر لطلاب العلم والقراءة الدخول إليها والمطالعة فيها واستخدامها بعد أن وقفها عليهم.

خزانة كتب مباركشاه في مرو الروذ :

ورغم أننا لم نقف على نص واضح وصريح يشير إلى أنها كانت وقفاً، إلا أننا نذهب إلى كونها كانت كذلك، فقد ذكر أن فخر الدين أبا سعيد مباركشاه ابن الحسين المروزي المتوفى سنة ٦٠٢هـ «كان قد اتخذ داراً طيبة على بستان مونق جعل فيها خزانة كتب تحتوي على أنواع العلوم وجعل في داره جميع ما يحتاج النديم إليه من النرد والشطرنج وأنواع الأطعمة والأشربة...»[٦٥]

واستخدام «جعل» سبق أن أشرنا إلى أنه ورد في مكان وقف في نص لابن الأثير عند حديثه عن دار العلم لسابور بن أردشير، وتذكرنا هذه المكتبة بأول مكتبة أنشئت في الإسلام وهي التي أنشأها عبد الحكم الجمحي في مكة المكرمة في القرن الأول الهجري.

دار العدة في فجيج :

وإذا كانت المكتبات السابقة قد تأسست في مدن مشرقية فإن ذلك لا يعني خلو مدن المغرب العربي من مكتبات مثيلة، فقد كانت هناك مكتبات في الأندلس والمغرب وقفها أصحابها على طلاب العلم، من بينها خزانة بني عبد الجبار الواقعة في بلدة فجيج، وهي مدينة صغيرة في المغرب، وقد عرفت هذه الدار باسم «دار العدة» ووقفها عبد الجبار بن أحمد بن موسى الفجيجي الذي يحتمل أن تكون ولادته في الفترة من ٨١٠ إلى ٨٢٠ اعتماداً على قرائن منها أن ابن رزوق الحفيد المتوفى عام ٨٤٢هـ أجازه بتلمسان قبل هذا التاريخ، كما أجازه بفاس محمد بن الحسين بن محمد بن حمامة النيجي المتوفى عام ٨٨٧هـ، كما أجازه إبراهيم التازي عام ٨٦٥هـ.

وقد كان الفجيجي عالماً صالحاً وضع مؤلفات منها تفسير القرآن، ومختصر حياة الحيوان والفهرست، وتوفى في عام ٩٢٠هـ بفجيج[٦٦].

ولعل أهم ما خلفه الفجيجي تلك المكتبة العامرة التي وقفها في الفترة ما بين ٨٢٠ و ٩٢٠هـ حيث :

دشن خزانة بحمولة أربعين بعيراً كتباً، جاء بمعظمها من فاس وتلمسان ومصر وينيف مجموعها على خمسة آلاف مجلد، وهو رقم ليس بالهين، ولكنه أيضاً ليس بالخيال بل على العكس يبدو خاسئاً ذليلاً أمام تلك الأبهة التي أضفاها الرحالون عليها، وأحاديثهم ترشح بالإكبار والإعزاز يخال معهما المرء أن الخزانة تضمنت عشرات الآلاف من الكتب.

وإننا لنجد أيضاً في إطلاق اسم «دار العدة» عليها أكثر من دليل فالعدة إمعان في المبالغة بالكثرة والعدد، والعدة أيضاً إظهار للمبالغة في الاعتداد والتعويل ولا سرفاً أقول إن أنا زعمت أن الخزانة كان يعول عليها ويعتد بها بحق فقد أخبرنا الرحالة ابن ناصر الدرعي خبراً مفاده أن أحمد بن السكوني ما كان ليكتب كتابيه شرح دلائل الخيرات وشرح تنبيه الأنام لولا ما وجده من الكتب ميسراً في خزانة سيدي عبد الجبار، ولأمر ما جعل الرحالون زيارتها تقليداً محموداً فاشياً بينهم[٦٧].

وقد تعرضت هذه الخزانة إلى عبث العابثين بعد فترة من تأسيسها مما دفع بأحد أحفاد عبد الجبار وهو عبد القادر بن محمد إلى إعادة النظرة في أمرها، فلم يجد مخرجاً غير وقفها من جديد فحرر القاضي محمد بن إبراهيم بن عبد الجبار كتاباً بذلك شهد عليه ثمانية وثلاثين شاهداً من أهل فجيج، وكان ذلك في عام ١١٦٥ هجرية.

ومما جاء في كتاب الوقف :

وأن ماجمعه المذكور وأولاده في صدر القرن العاشر من خزانة الكتب بدار العدة المشهورة ببلاد فجيج من أجل خزائن المدن وأكبرها، وليس

الخبر كالعيان، حبس على من ينتفع به من الذرية وغيرهم بالنظر فيها والانتساخ منها إن كان أهلاً لذلك ثم ترد بعد ذلك لمحلها معقب مؤبد ووقف صحيح مخلد لا يباع ولا يوهب ولا يورث حسبما شهد به الجم الغفير والملأ الكثير من أهل بلدة فجيج خلفاً عن سلف بحيث لم يقع فيها إرث ولا قسمة بين ذرية من ذكر قط من حيث جمعت إلى الآن... ونقول بعد الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم إثر تاريخه منذ أدركوا بأسنانهم وميزوا بأذهانهم وفهموا بعقولهم يسمعون سماعاً فاشياً من ألسنة العدول وغيرهم من أهل بلدة فجيج ممن لا يحصى أن خزانة كتب أولاد سيدي عبد الجبار حبس معقب لا يورث ولا يقسم ولا يباع ولا يوهب...[٦٨]

وعقب إثبات وقفها انتعشت المكتبة، وأضيف إلى رصيدها ما جعل منها مؤئلاً للقاصدين مرة أخرى، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث عاد العبث بها من جديد فتفرقت كتبها بدداً.

مكتبة محمد راشد أفندي في قيصري :

وأسس محمد راشد أفندي المتوفى سنة ١٢١٢ هجرية مكتبة في بلدة قيصري بتركيا عام ١٢١١هـ ووقف فيها ٩٢٥ مجلداً مخطوطاً و١٨ مجلداً مطبوعاً قديماً، وتتكون هذه المكتبة من حجرتين وقاعة كبيرة للكتب، واشترط في وثيقة وقفها أن يعين فيها ثلاثة أشخاص يتولون حفظها وصيانتها.

وقد تطورت مجموعة المكتبة فيما بعد حتى وصل عدد محتوياتها اليوم إلى سبعة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع[٦٩].

مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة :

ولا تزال هذه المكتبة باقية حتى اليوم تؤدي رسالتها ويقصدها الباحثون وطلاب المعرفة من كل مكان رغبة في الإستفادة من مخطوطاتها النفيسة، وهي تتبع وزارة الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية، وقد وقفها شيخ الإسلام أحمد عارف حكمة الحسيني (ت ١٢٧٥هـ) في عام ١٢٧٠هـ ــ ١٨٥٢م بالمدينة المنورة، وكان من أعلام القرن الثالث عشر تولى مناصب كثيرة في الدولة العثمانية، منها

قضاء مصر وقضاء المدينة المنورة ونقابة الأشراف ثم مشيخة الإسلام في عام ١٢٦٢هـ، وحظي بإحترام معاصريه لما عرف به من زهد وورع وحب للخير، ويتحدث أحد معاصريه عن وقفه لكتبه وتسييرها إلى المدينة فيقول :

فلما زين ــ سلمه الله تعالى ــ صحائفه بأنواع الخيرات، وحلى صفائحها بجداول الصدقات، ناداه التوفيق: كثر الله تعالى خيرك وجعل سبحانه لرضاه سيرك وضاعف في الدارين أجرك، وقدس عن الرياء سِرّك وسَرّك ثم ناجاه بأن قد بقى ما إن فعلته لم تدع في قوس الجود منزعاً، ولم تترك في كأس الصدق مترعاً، ولا في رياض التصدق مرتعاً، وهو وقف كتبك التي هي أعز محبوب لديك، وأكرم مطلوب عليك وأغلاه أثماناً، وأعلاه مكاناً وأجل قدراً... فخرج ولله تعالى دره ــ عن عشرة آلاف كتاب من ذلك رغبة بالدخول في حرم رضا ربه تعالى المالك والكل كما أخبرني ــ من كتب العلوم الشرعية ليس فيه من كتب الفلسفة الإلٰهية والرياضة الطبيعية، وأن الجلود تزيد على ذلك المقدار إذ من الكتب ما هو عشرة أسفار وبعد أن وقفه سيره إلى حرم المدينة المحترمة.. وقد أرسل منها ــ سلمه الله تعالى ــ بعيد دخولي اسلامبول مع شيخ الحرم وخادم روضة رسول الله ــ ﷺ ــ نحواً من ستة آلاف كتاب، وقد شاهدت بعضها بعيني فغيبني عن شعوري العجب العجاب[٧٠].

ويبدو من النص السابق أن عارف حكمة قد وقف عشرة آلاف كتاب من بينها ستة آلاف بعث بها إلى مكتبته التي أنشأها بالمدينة المنورة، أما الأربعة آلاف الأخرى فلعله أبقاها موقوفة في تركيا، ويشير عارف حكمة في صك الوقفية إلى أنه وقف وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً المصاحف الشريفة التي عددها ستة عشرة مصحفاً وكتبه النفيسة التي يصل عددها إلى خمسة آلاف كتاب، ونجد هنا تناقضاً بين ما أورده الألوسي وما نجده في صك الوقفية، وقد أدى ذلك إلى اختلاف الذين كتبوا عن هذه المكتبة في تقدير حجم مقتنياتها، حيث جعلها بعضهم خمسة آلاف مخطوط بين رسالة وكتاب، ويجزم بعضهم بأنها تشتمل على ٦٧٢٦ كتاباً منها ٢٠٠٨ مطبوعاً و٤٧١٨ مخطوطاً، أما محمد كرد علي

فإنه يوصلها إلى عشرة آلاف مجلد مخطوط، وأما فهارسها الحالية فتشير إلى أنها تحوي زهاء خمسة آلاف مخطوط تنقص قليلاً أو تزيد[٧١].

وقد شيد عارف حكمة بناية خاصة لهذه المكتبة تضم قاعة رئيسية عليها قبة فيها زخارف فنية بديعة، إضافة إلى غرف أخرى وفناء وسكن للقيم عليها، لا تزال قائمة حتى اليوم تضم الكتب التي وقفها عارف حكمة، مع إضافات يسيرة من المطبوعات الحديثة التي تزودها بها وزارة الحج والأوقاف.

كما وقف عارف حكمة على مكتبته هذه كثيراً من البيوت والدكاكين والخانات والبساتين وغيرها من الأوقاف الثابتة الدائمة المورد لصيانتها والصرف على موظفيها، وضمن ذلك في صك شرعي جاء فيه :

ووقفت الخان الذي اشتمل على أربع غرف وواحد اصطبل كبير وواحد فرن وواحد دكان البقالة، وواحد دكان الحلاقة، والصوندرمة والممشى ووقفت جملة أبنية مصنع وفرن كبير وبئر ماء وسائر المشتلات المعلومة المتصلة للخان المذكور، ووقفت قطعة واحدة بستان كبير مع أشجاره المثمرة ومع آباره... ووقفت أبنية واحد باب منزل وتحته واحد دكان مع مطبخ.. ووقفت أبنية...ووقفت حماماً يسمى بكت ذات قبة... ووقفت أبنية ثمانية مع أبواب دكاكين ذات قبب ومنها واحد دكان الخضروات وواحد دكان القصاب، وواحد دكان البقالة وواحد دكان العطارة، وأربعة أخرى[٧٢].

وجميع هذه الأوقاف في استنابول، وقد قطع المورد الذي كان يخص المكتبة من هذه الأوقاف في العصر الحديث، وإضافة إلى ماسبق فقد وقف عارف حكمة مجموعة أخرى من المنازل بالمدينة المنورة، منها دار في مواجهة التاجوري كانت مؤجرة بمائة ريال وأخرى بباب المجيدي لا تزال موجودة وتؤجر بمبلغ ألف ريال ودار في زقاق الطيار، ودار في حوش التكارنة وقد هدمت، ودار في زقاق القشاش وقد هدمت أيضاً[٧٣].

ويشير محمد العيد الخطراوي إلى أن شيخ الإسلام عارف حكمة قد أنفق أموالاً كثيرة في سبيل اقتناء الكتب التي وقفها «حتى تجمعت له من أقطار الأرض

المختلفة أنفس الكتب وأجملها خطاً وأعلاها شأناً وأغلاها قيمة، وقد كتب بيده على صفحة عنوان أحد المخطوطات أنه دفع مبلغ أربعمائة جنيه عثماني ذهبي لشرائه[٧٤].

الخزانة العلمية الصبيحية بسلا :

ولا يخلو العصر الذي نعيش فيه من أنموذج تراثي مثيل لما درج عليه الأسلاف، فقد حبس باشا سلا السابق الحاج محمد بن الحاج الطيب الصبيحي خزانته العلمية في يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول عام ١٣٧٨هـ لتكون وقفاً على العلماء وطلبة العلم وعامة القراء، وكانت تشتمل على أربعة آلاف كتاب مخطوط ومطبوع، وعين ابنه المهندس عبد الله الصبيحي ناظراً لها كما وقف عليها مبلغاً من المال ليصرف على مصالحها[٧٥].

وواصل ابنه الناظر المسيرة فوقف على هذه المكتبة بناية جديدة في شعبان من عام ١٣٩٦هـ تتكون من طابقين وتقع في ساحة الشهداء بمدينة سلا من المغرب لتكون مقراً للكتب التي وقفها والده، وقد جهزت المكتبة تجهيزاً عصرياً[٧٦].

وتمتاز المكتبة المحبسة بأنها كانت في ملك أسرة... عالمة فهي تحتوي على أهم المطبوعات العربية الإسلامية القديمة والحديثة، ما طبع منها بالبلاد العربية والهندية والإيرانية والأوربية، وعدد وافر من المخطوطات الأصلية المتنوعة التي يرجع تاريخ انتساخها إلى القرون الخمسة الأخيرة... تمتاز بميزات بارزة منها التنوع الشامل لكل العلوم التي عرفها المسلمون[٧٧].

وقد وضع محمد حجي فهرساً لمخطوطات هذه المكتبة تضمن تعريفاً بـ١٣٣٧ مخطوطاً نشره معهد المخطوطات العربية بالكويت، جاء في ٧٢٢ صفحة.

* * *

وتتجلى لنا من العجالة السابقة صورة من الرعاية الفائقة التي حظيت بها دور الكتب الموقوفة من قبل شخصيات وجدت فيها مجالاً للتعبير عن رغبتها في

إشاعة العلم وتيسير أمر تداول الكتب بين أيدي طلابه الذين لم يكن في مقدور أي منهم الوقوف على بعض ما فيها في حال عدم وجودها، وكانت دور الكتب هذه سابقة للمدارس، ومن هنا أصبحت ملاذاً للدارسين ومركزاً للعلماء الذين كانوا يلتقون فيها وينهلون من ذخائرها ويتطارحون الرأي والنقاش والجدل بين أروقتها، وكان لبعضها شهرة كبيرة دفعت بأعلام مشاهير مثل أبي العلاء إلى قصدها للوقوف على نفائسها والتزود بفرائدها التي لم تكن ميسرة في أماكن إقامتهم.